عيسى عليه السلام، كلمة الله في السياق الكلامي الإسلامي

مروان الحبشي

جامعة القرويين

مؤسسة دار الحديث الحسنية

الملخص

منذ أول لقاء جمع النبي محمد ﷺ بالنصارى، كانت المناقشات قد بدأت تدور حول عيسى عليه السلام باعتباره ''كلمة الله''؛ حيث كان المسلمون والنصارى يسألون بعضهم البعض ماذا يعني ذلك في عقيدتكم؟

ومنذ ذلك الحين ظل النقاش يقتصر في كتب التفسير الأولى على ذكر الآيات القرآنية الواردة في الموضوع، وبعض الأحاديث النبوية. كما احتفت بعض مصادر السيرة النبوية الأولى بذكر تفاصيل اللقاء الذي جمع النبي ﷺ بالنصارى. بالإضافة إلى ذلك، أخذت هذه المسألة حيزا لا بأس به في كتب المتكلمين؛ حيث استعملوا إلى جانب ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الأدلة العقلية، من أجل انتقاد العقيدة المسيحية بخصوص تصورهم عن عيسى عليه السلام.

في هذا المقال، تابعت كيف تطورت المناقشة في هذه القضية، خاصة في السياق الكلامي الإسلامي، مستعينا بالمنهج الوصفي والتحليلي. وقد تبين من خلال متابعة التطور الذي حدث في كتابات بعض المتكلمين، أن علماء الكلام لم يتوقفوا عند حدود الآيات والأحاديث القرآنية، بل استمروا في الاعتماد على الأدلة العقلية المختلفة. كما تبين أن اتصالا معرفيا بين النصارى والمسلمين كان مستمرا على مستوى مناقشة قضايا أصول الدين، مما أدى إلى تطوير البحث من كلا الطرفين مع مرور الوقت.

يبدأ هذا المقال بعرض موقف النصارى بشكل عام حول معنى أن عيسى ''كلمة الله''، وبعد ذلك يذكر اختلافهم في تفسير هذه المسألة. ثم يشرح كيف بدأ النقاش في علم الكلام الإسلامي وكيف تطور من خلال ردود متعددة من قبل المتكلمين. إلى جانب ذكر الأسباب التي كانت وراء تسميته بهذا الاسم، ثم الاستنتاج.

الكلمات المفتاحية: كلمة الله، عيسى، النقد الكلامي، المسيحيون، السياق، الردود.

Abstract

Since the first meeting between the prophet Muhammad (PBUH) and Christians, the discussion between the two parties has been around Jesus being ''The Word of God,'' and around the different interpretations of this statement in both Islam and Christianity. Undeniably this is one of the most discussed topics in Islamic theology; throughout history, theologians have always been interested in understanding the Christian doctrine and have put a great deal of effort into criticizing it. For this reason, I tried in this article to trace the development of the criticism of this topic particularly within the context of Islamic theology. To do so, I have used descriptive, analytical, and historical methods.

By following the evolution of this discussion, this study demonstrates that theologians did not stop at the limits of the evidence presented by the Quranic verses and Hadiths, but relayed on rational thinking. Since there was a cognitive-communication between both Christians and Muslims at the level of discussion, it led to the development of research from both parties throughout time.

This research begins by presenting the opposed arguments of Christians and covers their different interpretations of this statement. Then, it explores how the debate began and developed in Islamic theology by tracing the arguments of the theological scholars and how Christians responded to this criticism. Lastly, we discuss how Jesus got the name of ''The Word of God ''and then the conclusion.

Keywords: Word of God, Jesus, Theological Criticism, Christians, Context, Responses.

المقدمة

لما كانت كتب التفسير تكاد تجمع على الوقوف عند حدود إخبار الله عز وجل أن عيسى عليه السلام كلمة الله، إلى جانب ذكر بعض مذاهب النصارى فيه دون الرد عليها أو مناقشة أدلتها، بل الاكتفاء فقط بالاستدلال بالآيات القرآنية أحيانا أو الأحاديث النبوية الشريفة أحيانا أخرى لإبطال مقالاتهم،[1] كان آنذاك للتساؤل حول نقاش المتكلمين بخصوص هذه المسألة مشروعية علمية؛ إذ من المعلوم أنهم ممن اشتغل بالإجابة عن مثل هذه القضايا التي تتصل بالعقيدة.

كما أن الوقوف على الدراسات السابقة في هذا الموضوع ليظهر مدى شح الاشتغال بتناول جهود المتكلمين في معالجة هذه المسألة، بل يصل الأمر أحيانا إلى إصدار أحكام لا أساس لها من الصحة؛ مخالفة تماما لما تشهد به المصادر، ففي المقالة المعنونة (بـ): **"عيسى في الإسلام"** للدكتور عمار جاب الله، عمد الكاتب إلى إصدار عدد من الأحكام التي تخالف ما عرفه السياق الكلامي الإسلامي؛ حيث يدعي أن القرآن يقدم عيسى عليه السلام على أنه نبي ورسول فريد إلا أن **المسلمين لا يستطيعون أن يشرحوا معنى كونه فريدا ومعنى كونه كلمة من الله،**[2] وهو الشيء الذي تشهد المصادر المتعددة للفرق الكلامية الإسلامية ببطلانه.

يهدف هذا البحث إلى الوقوف عند الحدود التي امتد إليها نقاش المتكلمين، والنظر في مدى تفاعلهم مع الديانة النصرانية بخصوص مقالتهم في ذلك، لما كان عيسى عليه السلام بعث فيهم خاصة، بقصد تجلية مدى معرفة المتكلمين بعقيدة النصارى ومدى توظيفهم لهذه المعرفة في نقد النصرانية والدفاع عن العقيدة الإسلامية.

كما يتشوف هذا البحث إلى الوقوف على الأسباب التي كانت وراء هذه التفسيرات والتأويلات المتعددة لهذا الموضوع عند المتكلمين. أو بعبارة أخرى: ما الذي ألزم فرقة إسلامية ما أن تقول مقالة معينة وتقدم تأويلا معينا في هذه القضية تخالف به الفرقة الأخرى اختلاف تناقض وتضاد، يستحيل معه أن يصوب المرء فيه كل فرقة؟

وقد قامت دعائم هذا البحث على مبحثين اثنين، يضم كل واحد منها مطلبين، **المبحث الأول** بعنوان: **مقالة النصارى في كون عيسى كلمة الله**؛ يضم مطلبين، الأول بعنوان: **مذهب النصارى وردود المتكلمين**

---

[1] على سبيل المثال لا الحصر: "حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال، قال: ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62]. قال: إن هذا القصصَ الحقّ في عيسى، ما ينبغي لعيسى أن يتعدَّى هذا ولا يُجاوزُه: أنْ يتعدى أن يكون كلمة الله ألقاها إلى مريم، وروحا منه، وعبد الله ورسوله". ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، ط.1 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000) الجزء: 6، الصفحة: 447. وبالتالي فالطبري يكتفي في مواضع كثيرة بالاقتصار على إيراد الآَثار وذكر الآيات فقط.

[2] جاب الله، عمار. **"عيسى في الإسلام"**، المجلة المعمدانية الجنوبية للاهوت، عنوان العدد: تحدي الإسلام، (2004)، الصفحة: 21.

عليهم، والثاني: **مذهب الموحدين من النصارى.** وأما **المبحث الثاني**، فعنونته بـ: **مقالة المسلمين في كون عيسى كلمة الله**؛ يضم كلا من المطلب الأول: **النقاش بين الفرق الإسلامية.** والمطلب الثاني: **سبب تسمية عيسى بالكلمة.** إلى جانب كل من **المقدمة، والخاتمة.** وقد اعتمدت في هذا البحث كلا من المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي، والمنهج التاريخي، في رصد النقاش الكلامي في السياق الإسلامي في هذه المسألة.

المبحث الأول: مقالة النصارى في كون عيسى كلمة الله

لم يقف المتكلمون على خلاف غيرهم ممن تعرض لتفسير القرآن الكريم عند حدود تفسير ظاهر آيات الكتاب العزيز وعدم تجاوز حدود ما تدل عليه الألفاظ والآيات وذكر الروايات الحديثية الواردة في ذلك؛ بل أخذ بهم الأمر مأخذ البحث في أسباب نزول هذه الآيات ومناقشة القضايا العقدية التي تثيرها، بحيث عمدوا إلى إثراء عملهم بالإشارة إلى الآراء والعقائد التي جاءت هذه الآيات بغرض تصحيحها أو مناقشتها، كما عمدوا إلى الاعتماد في غالب الأمر على الأدلة العقلية البرهانية من أجل الاستدلال على صحة ما يثبته القرآن وإبطال العقائد الفاسدة عند غيرهم، وتعد العقيدة النصرانية من بين المعتقدات التي لقيت اهتماما كبيرا من لدن المتكلمين.

المطلب الأول: مذهب النصارى وردود المتكلمين عليهم

لا بد من الإشارة أولا إلى أن مصادر قليلة في علم الكلام تلك التي اهتمت بإيراد مذاهب النصارى في معنى كون عيسى كلمة الله على وجه التفصيل، إذ يتجه أغلبها إلى نقد النصرانية على وجه الإجمال، دون نسبة كل قول إلى الفرقة التي دانت به.[3]

حسب الكتابات الكلامية الإسلامية فإن النصارى يكادون يجمعون على اختلاف فرقهم على أن عيسى عليه السلام **كلمة الله التي حواها بطن مريم** عليها السلام، وأنها **كلمة من ذات الله تعالى**،[4] إلا أنهم يختلفون اختلافا كبيرا في إثبات معناها؛ حيث اختلفت عباراتهم في ذلك اختلافا واسعا يصل إلى حد التناقض والتضاد، كما يجدر بنا التنبيه على أن جل مذاهبهم في معنى "كلمة الله" تناقش عندهم في ضوء الإجابة عن سؤال: كيف وقع الاتحاد بين الكلمة والمسيح؟

حيث ذهب البعض من الطائفة **الملكانية**[5] إلى القول: إن معنى الاتحاد: هو **اختلاط وامتزاج**؛ وأن **كلمة الله** انقلبت لحما ودما لما امتزجت بعيسى، بمعنى آخر أن **الكلمة التي هي أقنوم العلم**، (ولا يسمون

---

3 انظر على سبيل المثال: أبو منصور الماتريدي، **التوحيد**، المحقق: فتح الله خليف، د.ط (دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، د.ت). والباقلاني، **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، المحقق: عماد الدين أحمد حيدر، ط.1 (مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1987). وابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، ط.1 (شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، 1982). فهذه الكتب عنت على خلاف غيرها بذكر مذاهب النصارى.

4 انظر: الباقلاني، **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 108.

5 **الملكانية**: "أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية". محمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق عادل أحمد إبراهيم، ط.1 (مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 2013) الصفحة: 275.

عيسى ابنا إلا بعد أن يحيط به العلم)، اتحدت بالناسوت (الجسد) فاختلطتا وامتزجتا كما يختلط ويمتزج الماء بالخمر واللبن، وهو نفس المعنى الذي ذهبت إليه **الملكانية**.[6] وزعمت الفرقة **اليعقوبية**[7] أن الكلمة اتحدت بجسد المسيح من جهة **ظهورها فيه هيكلا ومحلا وتدبيرها** للأشياء عليه دون غيره من الناس، فأصبح الإله هو المسيح عيسى، إلا أنهم اختلفوا في معنى الظهور والتدبير بالنسبة للكلمة، فذهب أكثرهم إلى أن معنى ذلك **الاختلاط والامتزاج بين الكلمة والمسيح**، وهو من قبيل اختلاط وامتزاج الماء بالخمر واللبن؛ وهذا نفس المعنى الذي ذهبت إليه **الملكانية**.[8]

وقالت الطائفة **النسطورية**[9]: إن المقصود بظهور الكلمة في الجسد واتحادها به من قبيل **ظهور صورة الإنسان في المرآة** من غير حلول صورة الإنسان فيها، وقال قوم منهم إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح **من غير مماسة ولا ممازجة ولا مخالطة** كما يقال: إن الله حال في السماء وليس بمماس لها ولا مخالط لها،[10] وزعمت **الروم وهي الطائفة الملكية** أن الكلمة اتحدت بالجسد، **بمعنى أن الاثنين صارا واحدا** فصارت الكثرة قلة والكلمة والمسيح واحدا، وكان هذا الواحد بالاتحاد اثنين[11].

ومما يجب الإشارة إليه أن الباقلاني كان من أول من عرض لبيان معنى قول النصارى إن عيسى **كلمة الله من ذات الله**، مع إيراده لعدد من الاعتراضات والردود على مقالاتهم بقصد بيان بطلانها ووقوع الاضطراب فيها.

لقد رد الباقلاني على من زعم بأن حلول الكلمة في الجسد واختلاطها به والامتزاج به هو عين الاتحاد، بأن هذا يُجوز على الكلمة الحلول في الجسد المخلوق مع كونها قديمة عندهم، فما دام أنهم أجازوا على القديم سبحانه المماسة والمجاورة والمخالطة للمخلوق الحادث فلم لا يجوز عليه مقابلة المحدث والوقوف إلى جنبه ومصاحبته كما يُصاحب الرجل غيره من الناس؟ ولماذا لا يجوز على الله الظهور والكمون والحركة وكل ما يجري على الإنسان مما يتنزه الله عنه؟ فإذا لم يجيبوا على ذلك، عورضوا بعدد من الأسئلة الأخرى؛ لماذا ينكرون على من كان قديما غير مماس ولا ممازج ولا مخالط أن يكون كسائر الأجسام؟ وما فائدة أن يدعوا أن الكلمة قديمة وأنها ليست حادثة؟ وما الفائدة من جعل الأجسام حادثة وليست قديمة وهم يُجوزون اختلاط القديم بالحادث؟ وبالتالي؛ فإن كل هذه الاعتراضات تبين تناقض مقالتهم وعدم تناسقها.[12]

وقد رد كذلك على من زعم أن ظهور الابن في الجسد كظهور الوجه في المرآة من جهة حلول الوجه فيها بأنه **لا معنى له**؛ لكون الوجه لا يظهر في المرآة ولا ينتقل إليها ولا يمتزج بها، وإنما يقع إدراك الإنسان

---

6 انظر: **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 108.

7 **اليعقوبية**: "أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة". محمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، الصفحة: 280.

8 انظر: **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 108.

9 **النسطورية**: "أصحاب نسطور الحكيم، ظهر في زمان المأمون". **المصدر نفسه**، الصفحة: 278.

10 انظر: **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 113.

11 انظر: **المصدر نفسه**، الصفحة: 109.

12 انظر: **المصدر نفسه**، الصفحة: 110.

وجه نفسه فيها عند مقابلة الأجسام الصافية الصقلية بإدراك يحدث للإنسان بالعادة جراء انعكاس الشعاع، وبالتالي؛ فلا صورة توجد له على المرآة.[13]

وأما القول بجواز أن ينقلب القديم الذي ليس بلحم ولا دم لحما ودما باتحاده بالجسد كما تزعم اليعقوبية، فيؤدي إلى جواز أن تنقلب الكلمة التي تخالف المحدثات إلى محدثة بالاتحاد، فيصير القديم لنفسه جراء الاتحاد محدثا لما جوزوا أن يصير لحما ودما عند اتحاده، كما يقتضي قولهم هذا جواز أن يصير المحدث قبل اتحاد القديم به قديما عند اتحاد القديم به، فلا يصير لحما ودما عند الاتحاد، إذ يقتضي هذا أن تصير الطبيعتان المختلفتان طبيعة واحدة، فيصير ما ليس بلحم ودم لحما ودما، ويصير ما هو لحم ودم ليس بلحم ولا دم، وبهذا يبطل قولهم. وقد بين بطلان قول من قال: إن الكلمة حلت في الناسوت من غير مماسة، كحلول الله في السماء وكحلوله على العرش من غير مماسة لهما، بأن الباري عز وجل ليس في السماء، ولا مستو على العرش، على المعنى الذي يقول: إنه حال في العرش، حيث يلزم من القول بكونه حال في السماء أو مستويا على العرش، أن يكون مماسا لهما.[14]

أما قول **الروم** إن الكلمة اتحدت بالجسد أي بمعنى أن الاثنين صارا واحدا؛ فيثبت الباقلاني أن هذه المقالة مما اشتركت جميع الفرق النصرانية في تبنيها، ويرد على جميعهم بأن ربطهم لجواز حصول الاتحاد وأن يصير الاثنان واحدا بالاختلاط والامتزاج وفق ما بينوا من أن ذلك عبارة عن مماسة وملاصقة إلى غير ذلك مما يختص بالأجسام، غير معقول؛ إذ لا يصح أن تتحد الكلمة القديمة بالجسد الحادث ولا أن يصبح الاثنان واحدا؛ لأنه مرتبط بمحال وهو مماسة وملاصقة **ما ليس بجسم لما هو جسم**. كما يلزم الروم من القول بجواز أن يتحد القديم بمحدث فيصيران واحدا بعد أن كانا اثنين نقض إنكارهم على أن يتحد محدث بمحدث إذا خالطه ومازجه فيصيران واحدا، كأن يصير القدحان اللذان في أحدهما خمر وفي الآَخر ماء قدحا واحدا بعد اختلاطهما وامتزاجهما، مع أن هذا يجوز ؛ لأنهم أجازوا أن تمتزج الكلمة بالجسد فيصيران واحدا.[15]

إن نقد الإمام الباقلاني ليبين تضارب آرائهم وعدم اتساق مذهبهم، مما يدعو للريبة والشك، فمادام أنهم أجازوا أن تختلط وتمتزج الكلمة القديمة بالجسد المحدث حتى يصيران واحدا، كان لزاما عليهم أن يجيزوا اختلاط المحدث بالمحدث، فلما لم يجيزوا هذا، كان قولهم بامتزاج الذات القديمة بالجسد الحادث لا يستقيم على مذهبهم؛ ويُظهر تناقض مقالتهم.

أما ما خالف فيه الروم كلا من النسطورية واليعقوبية الذين زعموا أن الكلمة اتحدت بإنسان واحد جزئي فقط، وقالت الروم: بل إنه اتحد **بالإنسان الكلي**، وهو ما يسمونه: **بالجوهر الجامع لسائر أشخاص**

---

[13] انظر: **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 110.

[14] انظر: **المصدر نفسه**، الصفحة: 111.

[15] انظر: **المصدر نفسه**، الصفحة: 112.

الناس الذي جاء من أجل أن يخلصهم من المعصية، فقد بين الباقلاني كونه محالا؛ لكونه إذا ما اتحد بالإنسان الكلي صار آنذاك معه واحدا، فيصير تبعا لذلك الجوهر الكلي جزئيا وأقنوما واحدا، لقولهم بأن الابن هو مجرد أحد الأقانيم وليس كل الأقانيم؛ فهو من حيث القنومة شخص واحد جزئي، وبالتالي يصير عند اتحاده بالإنسان الكلي شيئا واحدا، فيلزم أن يكون كليا جزيئا، من جهة أنه كلي من حيث كونه جوهرا جامعا لسائر الناس، وجزئيا من حيث كونه خاصا وأقنوما للجوهر العام، وهذا محال.[16]

وقد أضاف الرازي في تفسيره الذي يغلب عليه الطابع الكلامي على دعوى **الملكانية** عددا من الإلزامات التي تبين بطلان مذهبهم، فبعد أن ذكر مذهبهم الذي يثبتون فيه أن ذات الله لم تحل في ناسوت عيسى بل **الكلمة هي التي حلت فيه،** وأن معنى الكلمة عندهم هو: **العلم،** اعترض عليهم بأن هذه المقالة يلزم منها، إذا قيل: إن **عيسى بقي في ذات الله،** حصول الصفة الواحدة وهي العلم في محلين اثنين، وهذا مخالف للمعقول؛ لأن ذلك مما يُجوز حُصول ذلك العلم في حق كل واحد من غير المسيح، أما إذا قيل: إن **عيسى** لم يبق في الذات، لزم من ذلك القول: إن الله لم يبق عالما بعد حلول علمه في عيسى، وهذا أيضا مخالف للمعقول.[17]

ومما استدل به عليهم كذلك، ما تفيده قاعدة: **لا يلزم من عدم الدليل عدم وجود المدلول،** فإن قولهم: إن ظهور تلك **الخوارق** تدل على **حلول الإله في جسم المسيح** أو بعبارة أخرى فالدليل الذي هو تلك الخوارق التي ظهرت على يد المسيح والمدلول الذي هو حلول الإله في جسد المسيح، منتقض بأنه لا يلزم من أن عدم ظهور تلك الأفعال العجيبة على يد غير المسيح عليه السلام من سائر المخلوقات، إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل، وإلا فقولهم يُجوز أن يحصل ذلك من جميع الناس.[18]

وبالتالي؛ إذا ثبت أنه لا يلزم من عدم ظهور الدليل عدم وجود المدلول، لم يكن آنذاك عدم ظهور الدليل وهو تلك الخوارق من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن الغيبيات من غير السيد المسيح دالا على عدم حلول الكلمة في غيره من الإنس والحيوان والنبات؛ وتبعا لذلك يلزم من مذهبهم حلول الله في جميع المخلوقات.

وعلى حد قول الإمام الرازي، فإن مذهبا يؤدي إلى تجويز حلول الله عز وجل في جميع مخلوقاته لفي غاية الركاكة والسخف.[19]

وبمرور الزمن واطلاع المتأخر على عمل المتقدم ظهرت أعمال جديدة في الموضوع، تكتسي في الغالب الأعم طابع النقد والحجاج، ويبقى من أهمها في القرن الثامن الهجري كتابات ابن تيمية، خاصة

[16] انظر: **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، الصفحة: 113.

[17] انظر: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، ط.1 (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981) الجزء: 21، الصفحة: 213.

[18] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 21، الصفحة: 213.

[19] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 21، الصفحة: 213.

منها: كتاب **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛** حيث عمد فيه إلى تقديم نقد ينبني على معرفة دقيقة بنصوص الكتاب المقدس التي يذكرها في عدد من المواطن من كتابه، إلى جانب معرفة بآراء الفرق النصرانية.

يعمد ابن تيمية إلى نقد مقالة اتحاد الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، منطلقا من تقديم أربعة احتمالات في ماهية الكلمة؛ فالكلمة "إما أن تكون هي: **الله أو صفة لذاته أو لا هي ذاته ولا صفة له أو الذات والصفة جميعا،"**[20] وإذا خرجت عن هذه الاحتمالات؛ لزم من ذلك أن تكون منفصلة عنه مخلوقة له كغيرها من المخلوقات، وبالتالي لم يكن المسيح ذا طبيعة لاهوتية ولا الخالق الذي خلقه على الكيفية التي قالت بها النصارى، وعندئذ لم يصح أن يتحد اللاهوت (الكلمة) بالمسيح.[21]

أما إذا كانت الكلمة هي عبارة عن **الذات أو الذات والصفة**، فهي الأب (الرب) عندهم، فيبطل قولهم لاتفاقهم على أن السيد المسيح ليس هو الأب ولا اتحد به الأب، بل إنما اتحد به الابن، ولاتفاقهم على أن المقصود بالكلمة هي الابن. وأما إذا كانت الكلمة هي عبارة عن **صفة لله**، فهذا مخالف لما عليه العقلاء من أن صفة الله لا تفارق ذاته ولا تحل في غيره؛ لكونها قائمة بذاته، كما أن الصفة ليست هي الإله، وعندهم أن المسيح هو الإله الخالق، فظهر تناقض مقالتهم.[22]

كما اعترض ابن تيمية على قولهم بأن المسيح هو نفس كلمة الله، بأن كلمة الله ليست هي الإله أي الأب عندهم، فهي لم تخلق السماوات والأرض ولا تغفر الذنوب، ولا يقول أحد: يا كلام الله ارحمني، وإنما يدعو الإله المتصف بصفات الكمال، كما أن المسيح عندهم ليس هو نفس الرب المتكلم بل هو الابن، وإنما الرب المتكلم عندهم هو الأب، ومن المعلوم أن المسيح عندهم ليس هو الأب، فتبين اضطراب مقالاتهم.[23] فلو كان المسيح هو نفس كلمة الله للزم من ذلك أنه هو الخالق والغفور والقادر، وهذه صفات تقوم بذات الله، فظهر أن المسيح ليس هو نفس كلمة الله، لما نفوا أن تكون الكلمة هي الأب، فهم يثبتون صفات الأب للابن، وينفون أن يكون الأب ابنا في نفس الوقت، وهذا تناقض ظاهر منهم.

كما ينطلق ابن تيمية من فكرة أن مقالات النصارى هي تحريف لكلام عيسى عليه السلام ولكلام غيره من الأنبياء، بدليل أنه لم يرد في **كلام المسيح ولا أحد من الأنبياء** أن **كلمة الله** القائمة بذاته وأن **صفة الكلام** القديمة في حقه تعالى تسمى ابنا، إذ لم يرد وقوع اسم الابن في كلام الأنبياء إلا على مخلوق من المخلوقات، ويقرر ابن تيمية أن المراد من قوله تعالى أنه ابن فيما جاء عندهم؛ إنما هو كونه مصطفى محبوب عند الله؛ كما يأتي ذلك على المعتاد في لغتهم من قبيل قول تعالى لداود: (أنت ابني وحبيبي) وقول

---

[20] ابن تيمية، أحمد. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق: علي بن حسن عبد العزيز بن إبراهيم، وحمدان بن محمد، ط.2 (دار العاصمة، الرياض، 1999)، الجزء: 2، الصفحة: 174.

[21] انظر: **المصدر نفسه.**

[22] انظر: **المصدر نفسه.**

[23] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 3، ص: ص: 315-316.

المسيح للحواريين (أبي وأبيكم)، فجعلهم في قوله هذا كلهم أبناء لله، وجعل الله أبا لهم، ومن المعلوم أنهم مخلوقون، مما يبين أن اسم الابن واقع على عيسى بهذا المعنى، أي واقع على الناسوت وليس ما تأولته أغلب فرقهم؛ حيث جعلوا اسم الابن واقعا على اللاهوت الأزلي المولود من غير أن يكون مخلوقا.[24]

ويظهر لنا في نقد ابن تيمية أنه اعتمد على دليلين اثنين، أولا: **الدليل اللغوي**؛ حيث إنه استدل بما جرت عليه لغتهم، أو بعبارة أخرى ما جرى في الاستعمال اللغوي لديهم. أما الدليل الثاني: فهو **الدليل التاريخي**؛ حيث استدل بأن كلام الأنبياء عبر التاريخ لم يرد فيه ما يدعونه من أن كلمة الله أو صفة الكلام القائمة بذات الله تسمى ابنا، وهذه الأدلة المستعملة عند ابن تيمية إذا نظرنا إليها مع استحضار ما سبق ذكره من أدلة الأئمة المتقدمين، ظهر لنا آنذاك مدى تطور النقد الكلامي لمقالات النصارى في هذه المسألة.

وقد عرفت مقالات النصارى هي الأخرى تطور مع مرور الزمن، ومما يمكننا أن نستدل به على ذلك أن ابن تيمية نقل عنهم مجموعة من المقالات التي تبين إنكارهم لما قالت به الفرق النصرانية السابقة، وهذا لا يدل إلا على أن النصارى كان لهم اطلاع على انتقادات المتكلمين لهم، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان لهم أن يردوا على ردود المتكلمين وأن يتجاوزوا مقالات من سبقهم.

ومن الأمثلة التي تبين هذا وتتصل بموضوعنا اتصالا وثيقا، ما نقله ابن تيمية عنهم من تفسيرهم لتجسيم كلمة الله بالمسيح، على أنها عبارة عن **اتحاد وتجسم وتجسد بريًّا من الاختلاط أو التغير أو الاستحالة، كما ادعوا أن كلمة الله هي الخالقة التي بها خلق كل شيء**.[25]

وبمجرد استحضار نقد كل من الباقلاني والرازي وغيره، يتبين أن استدراك المتأخرين من النصارى على الفرق التي سبقتهم، جاء بعد اطلاعهم على انتقادات المتكلمين واستفادتهم منها، فقولهم **بالاختلاط والتغير والاستحالة** يعد من أهم الانتقادات التي وجهها لهم علماء الكلام سابقا؛ حيث زعموا أن مقالة النصارى تؤول إلى الاستحالة والتغير. ومن ثم؛ فإن تطور مقالات النصارى كان جراء النقد الكلامي الذي توجه لها، بغض النظر عن الحديث عن صحة هذه المقالات الجديدة أو بطلانها.

وقد رد ابن تيمية على مقالتهم هذه بأنها لا تستقيم، إذ أن القول بأن الكلمة تجسمت وتجسدت يلزم منه أن الكلمة صارت جسدا وجسما بالإنسان المخلوق، وهو الأمر الذي يقتضي انقلابها جسدا وجسما، وهذا يؤدي إلى استحالتها وتغيرها، فيبطل قولهم. وأما قولهم: إن كلمة الله هي **الخالقة التي بها خلق كل شيء**، ففيه تناقض يظهر من جهة كون الخالق هو الله، وهم هنا نسبوا فعل الخلق إلى الكلمة، وهذا لا يستقيم، إذ الكلمة بها خُلق الخلق. ومن ثم، فإن فعل الخلق يكون من الله وليس من الكلمة؛ فظهر تناقض قولهم.[26]

---

[24] انظر: **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الجزء: 3، الصفحة: 133.

[25] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 4، ص: ص: 5-6.

[26] انظر: **المصدر نفسه**.

كما أن النقاش لم يعد في القرن الثامن الهجري يقف عند حدود الرد على نفس مقالات النصارى التي سبق ذكرها، بل امتد الأمر إلى الرد على مقالات جديدة لهم، شملت تفسيرهم لعدد من الآيات القرآنية ومحاولة الاستدلال بها على صحة معتقداتهم. ومن أمثلة ذلك، قولهم: إنه قد جاء في كتابكم أن الله ألقى كلمته إلى مريم، وهو موافق لقولنا نحن النصارى: **"إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل"**.[27] فاستعملوا بذلك آيات القرآن الكريم للاستدلال على صحة معتقدهم.

وقد رد ابن تيمية على هذا التأويل بأنه تأويل ليس بصحيح، إذ يفتقر إلى الوقوف على كل الآيات التي جاءت في السيد المسيح والتي تبطل مقالاتهم فيه، فقد بين قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45] بأن عيسى مخلوق لله، فقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ نكرة في الإثبات يلزم منها أنه كلمة من كلمات الله، وليس هو كلامه كله كما يدعون، ومما يبين المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، هو قوله في موضع آخر: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47] فيتبين أن عيسى مخلوق كغيره من المخلوقات؛ حيث كان خلقه بالكلمة، حينما قال الله له: ﴿كن﴾ فكان.[28] بالإضافة إلى أنه أخبر بأنه ابن لمريم في قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.[29]

وإلى جانب ما سبق بيانه من اختلاف مذاهب النصارى وذكر ردود علماء الكلام عليها، فإن علماء الكلام حرصوا على ذكر مجموعة من الفرق النصرانية الأخرى التي كانت تؤمن بنفس ما عليه جمهور أهل الإسلام؛ بيانا منهم لوجود بعض الفرق النصرانية التي تقول ببطلان مقالات الفرق الأخرى التي تقدم ذكرها، وهنا ذكر لبعضها.

المطلب الثاني: مذهب الموحدين من النصارى

ذهبت بعض الفرق النصرانية التي خالفت مقالات الفرق السابقة الذكر إلى موافقة المسلمين في مذهبهم، وقد ذكر ابن حزم على أن مذهب هذه الفرق هو التوحيد المجرد؛ حيث يذهبون إلى أن عيسى عليه السلام، **عبد مخلوق لله تعالى، وأنه كلمة الله التي بها خَلق السماوات والأرض،** وأن المسيح كلمة الله **وابنه من جهة الاصطفاء**، وينسب هذا المذهب إلى **أصحاب أريوس** الذي كان قسيسا بالإسكندرية زمن قسطنطين الأول الذي بنى القسطنطينية، وكان أول من تنصر من ملوك الروم على مذهب أريوس. ومن بين هذه الفرق كذلك **أصحاب بولس الشمشاطي** الذي كان هو الآخر يقول بالتوحيد الصحيح، من كون عيسى بن مريم **عبد الله ورسوله المبعوث برسالة الله كغيره من أنبياء الله، وأنه إنسان كغيره من البشر لا إلهية فيه؛** خلقه الله تعالى في بطن مريم عليها السلام على خلاف العادة من غير حاجة إلى رجل، وأن

[27] **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الجزء: 4، الصفحة: 64.

[28] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 4، الصفحة: 63.

[29] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 4، الصفحة: 64.

الله عز وجل سماه ابنا **من جهة التبني، لا من جهة الولادة والاتحاد** تشريفا وتكريما لطاعته وعبادته، كما كان من قوله: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس، وقد كان بطريركيا بأنطاكية قبل ظهور النصرانية[30].

وبعد وفاة هذا الملك، ظهرت النصرانية في زمن ابنه قسطنطين بن قسطنطين، وكان **مقدونيوس** بطريركا في القسطنطينية يقول: إن **عيسى عبد مخلوق وإنسان مرسل** كغيره من الأنبياء، وأنه روح القدس وكلمة الله، وهما مخلوقان من مخلوقات الله.[31]

وبالتالي؛ فإن أصحاب هذه الفرق ذهبوا مذهبا خالفوا فيه غيرهم ممن سبق ذكرهم؛ حيث بقوا على المعتقد الذي بلغهم إياه المسيح عيسى ابن مريم، ولم يغيروه اتباعا للشبهات.

المبحث الثاني: مقالة المسلمين في كون عيسى كلمة الله

بيد أنه من خلال تتبع عدد من النصوص التي تصدت لمناقشة القضايا العقدية، يظهر أن أول نص أرخ للنقاش الكلامي الإسلامي الذي دار حول معنى كلمة الله، هو كتاب **الرد على الجهمية والزنادقة** للإمام أحمد بن حنبل؛ متجاوزا حد الوقوف عند مستوى بيان ما قرره القرآن الكريم وما بينته السنة النبوية إلى مستوى مناقشة الأصول العقدية من خلال تأويل هذه النصوص؛ حيث أصبح تفسير هذه الآيات فيما بعد، سواء في الكتب المفردة في التفسير أو في الكتب المفردة في العقيدة، قرينا بذكر مذاهب الفرق الإسلامية في تأويلها.

المطلب الأول: النقاش بين الفرق الإسلامية

إن أول ما يمكن أن نسجله بخصوص ما تذكره عدد من المصادر الإسلامية، أن أول من قال بمقالة النصارى في عيسى عليه السلام في السياق الإسلامي هو **الجهم بن صفوان**؛ حيث قال: إن كلمة الله **حواها بطن مريم** وأن كلام الله مخلوق وأن عيسى عليه السلام هو **عين كلمة الله تعالى**،[32] بينما قالت النصارى: إنها **كلمة من ذات الله تعالى**، وقد سبق ذكر ذلك، وهما مقولتان تؤديان إلى القول بالحلول.

ومرد قول الجهمية راجع إلى وفائهم لأصولهم العقدية؛ حيث فسروا كلمة الله على ضوء ما قرروه في أصولهم العقدية من أن كلام الله مخلوق، وبالتالي لما كان كلام الله مخلوقا كانت كلمة الله التي وردت في حق عيسى عليه السلام مخلوقة كذلك، وراجع كذلك إلى نفيهم للصفات الأزلية عن الله تعالى: كصفة الكلام، والعلم، إذ لما نفوا أن يكون الله متكلما لزمهم أن لا يقولوا بأن عيسى عليه السلام **كان بالكلمة**.

ومما يمكن الإشارة إليه؛ أن أغلب مقالات عدد من الفرق التي ظهرت في السياق الكلامي الإسلامي، كالجهمية والمعتزلة، لم يصلنا من كتبها إلا القليل، وبالتالي فالمصادر الوحيدة التي حفظت هذه المقالات

---

30 انظر: ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، الجزء: 1، ص: ص: 109-110.

31 انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 1، الصفحة: 110.

32 انظر: ابن حنبل، **الرد على الجهمية والزنادقة**، المحقق: صبري بن سلامة شاهين، ط.1 (دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، د.ت)، الصفحة: 126.

هي الكتب التي تصدت للرد عليهم، أو بعض كتب أئمتهم التي تعد على رؤوس الأصابع كمذهب المعتزلة، لذلك يكون من الصعب الجزم بصحة هذه المقالات إلا ما كان منها في كتب مشهود لأصحابها بالأمانة العلمية في النقل، كما أن توارد عدد من الكتب في إيراد نفس الرأي لهذه الفرقة أو تلك، ليعد قرينة تدل على صحة هذه الأقوال ونسبتها إلى أصحابها.

ومما استدل به الجهم بن صفوان على القول بخلق القرآن، قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ [171 النساء]. وبناء على ذلك فعيسى مخلوق لكونه عين كلمة الله التي هي الأخرى مخلوقة، ولما كان السبيل الأقوى إلى نفي مقالة الجهمية في عيسى عليه السلام رهينا بإبطال قولهم في خلق القرآن، رد أحمد بن حنبل على استدلالهم بهذه الآية على خلق القرآن بأن الألفاظ التي أجراها الله عز وجل على عيسى عليه السلام ليست هي نفس الألفاظ التي أجراها على القرآن، إذ قال في عيسى أشياء من قبيل كونه مولودا وصبيا يأكل ويشرب، إلى غير ذلك مما لم يقله في القرآن، فلم يجز تبعا لذلك القول في القرآن بما قيل في عيسى. وبالتالي، **ينتفي أن يكون عيسى عليه السلام هو عين الكلمة**، بل كان وجوده بالكلمة، ولا يلزم من ذلك أن كلمة الله مخلوقة، بل عيسى هو الذي **خلق بقول الله تعالى للكلمة وهي:** ﴿كن﴾.[33]

ولا بد لنا من الإشارة إلى أن هذا النقاش عند المتكلمين، كان فرعا عن النقاش المركزي الذي كان دائرا حول مسألة خلق القرآن، إذ غالبا ما يتم الإشارة إلى هذه المسألة في ثناياه، بخلاف بعض الكتب التي أفردت مباحث خاصة للمناقشة والرد على عقائد النصارى.

وإلى جانب ما سبق بيانه من مذهب الجهمية، فقد نسب **عثمان الدارمي** إلى **بشر المريسي** من **المعتزلة** أنه فسر﴿ كُن ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]. بمعنى **كَوْنُهُ كما شاء بغير** ﴿**كن**﴾[34] أي يكون على ما أراد، فيكون ويوجد ذلك الشيء عندما يكون من غير قول قائل يقول له: ﴿كُن﴾. وقد زعم ناقل كلام المريسي للدارمي، أن بشر يقصد أن الأشياء ليست مخلوقة من ﴿كن﴾ ولكن الله كونها على ما أراده من غير كيفية معينة، وبالتالي فعيسى لم يخلق بقوله تعالى: ﴿كُن﴾.[35]

وقد رد الدارمي على مزاعم المريسي وعلى من أخذ عنه هذه المقالة، بأن هذا جحود بما أنزل الله تعالى؛ حيث أثبتوا الإرادة الواردة في الآية ونفوا صفة الكلام، مثبتين أن لله القول والإدارة معا، فسبقت

[33] انظر: ابن حنبل، **الرد على الجهمية والزنادقة**، المحقق: صبري بن سلامة شاهين، ط.1 (دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، د.ت) الصفحة: 126.

[34] انظر: الدارمي، **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد**، المحقق: رشيد بن حسن الألمعي، ط.1 (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1998). الجزء: 2، الصفحة: 670.

[35] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 2، الصفحة: 672.

الإرادة الكلام بقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾، ثم أتبعها بذكر الكلام، بقوله: ﴿كُن﴾، فكان ما شاء من مخلوقاته بقوله وإرادته معا، وهذه هي الكيفية التي يكون بها خلقه تعالى.[36]

وقد صرح المريسي أن ما يمنع المعتزلة من القول بمثل مقالته، هو أنهم ألزموا أنفسهم أنهم متى قالوا بذلك، لزمهم أن يقروا بالقرآن والتوراة والإنجيل أنه نفس كلام الله تعالى،[37] فامتنعوا بالقول: إن الله تعالى لم يتكلم قط بشيء ولا يتكلم، فعطلوا صفة الكلام واعتبروا أن كلام الله مخلوق محدث في محل؛ وما كان محدثا في محل فهو عرض قد فني في الحال.

ولم يسلم الدارمي هو الآخر من نقد معارضيه؛ حيث اعترض عليه بأن من زعم أن معنى قول الله تعالى في حق عيسى بن مريم: كونه كلمة الله، هو أنه **كان بكلمته**، فيه **جرأة وتأول** على الله برأيه دون أن يعينوا **المخرج منه.** وقد رد الدارمي على ذلك بالقول: إن هذا مما لا يحتاج إلى تفسير ومخرج، إذ عامة من آمن بالله على إدراك ومعرفة بأن الله عز وجل إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، ومتى لا يقول له: كن، لا يكون، وعليه فإن عيسى عليه السلام كان بإرادة الله وكلمته، لا أنه نفس الكلمة وعينها التي خرجت منه، وتبعا لذلك فإن الكلمة ﴿ كن﴾ غير مخلوقة أما الكائن بها (عيسى وغيره من المخلوقات) فمخلوق حادث.[38]

والذي يمكننا أن نلاحظه هو أن مقالة الدارمي هي الأخرى يظهر أنها محكومة بالنقاش حول مسألة خلق القرآن، إذ يظهر جليا تأثير إثباته صفة الكلام لله عز وجل من خلال القول بأن قوله تعالى: ﴿كن﴾ غير مخلوقة، إذ يلزمه من القول بأنها مخلوقة، تعميم ذلك على كلام الله عز وجل بما فيه القرآن؛ وبالتالي امتنع عن ذلك.

وبناء على ما سبق؛ نشير إلى أن جمهور المتكلمين يقررون أن **الكلمة غير مخلوقة**، وبالتالي **لم يكن هناك أي تمازج بين الكلمة وعيسى، بل بالكلمة كان عيسى**، إلا ما كان من خلاف الجهمية والمعتزلة، الذين ألزموا أنفسهم لوازم جعلتهم يهملون نصوصا كثيرة، ويوافقون مقالة النصارى في عيسى عليه السلام.

فعيسى لا يخرج عن أن يكون مجرد مخلوق كغيره من المخلوقات، خلق بواسطة الكلمة وهي قوله تعالى: كن، فجاءت إضافة حدوثه إلى الكلمة على سبيل **"أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة"**[39] على ما جرت عليه العرب من تسمية من غلب عليه الجود بأنه نفس الجود، وتسمية من غلب عليه الكرم، بأنه محض الكرم، وكما يسمى المخلوق خلقا، والمرجو رجاء، وهذا معلوم في اللغة.

وننبه إلى أن وجه الاختلاف بين النصارى وجمهور أهل الإسلام مرده إلى **أن كلام الله صفة من صفات الله تعالى** عند المسلمين، فهو متكلم، وبالتالي كان خلق عيسى بكلمة الله تعالى، بينما يعتقد النصارى

---

[36] انظر: الدارمي، **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد**، الجزء: 2، الصفحة 672.

[37] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 2، الصفحة: 673.

[38] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 2، الصفحة: 674.

[39] الرازي، **مفاتيح الغيب**، الجزء: 11، الصفحة: 117.

أن كون عيسى كلمة الله بمعنى جزء من ذات الله، فهي من **عين الذات الإلهية** عندهم، وليست صفة لها، وهذا فرق جوهري بين الاعتقادين.

وقد كان الإمام **الأشعري** كذلك ممن تصدى لإبطال مقالة الجهمية؛ حيث عمد إلى إيراد أدلة أخرى غير التي اعتمد عليها من سبقه، أولها: لما كانت من بين مقالات الجهمية، القول بالجبر، ألزمهم الأشعري بأن القول بعدم جواز أن يخلق الله **إرادته** في بعض المخلوقات، هو من قبيل **عدم جواز أن يخلق الله كلامه** في بعض المخلوقات؛ إذ لو كانت إرادة الله مخلوقة في بعض المخلوقات للزم من ذلك أن يكون ذلك المخلوق هو المريد بها، وهذا مستحيل، فكان خلق الله كلامه في مخلوق ما مستحيل هو الآَخر، إذ يلزم منه أن ذلك المخلوق متكلم به، وقد علم أنه يستحيل أن يكون كلام الله عز وجل كلاما للمخلوق.

ثانيها: إن القول بأن القرآَن مخلوق يلزم منه أنه قولٌ للبشر، وهو الأمر الذي أنكره الله عز وجل على المشركين لما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25]. فإنكاره تعالى أن يكون قولا للبشر، يلزم منه انتفاء أن يكون مخلوقا كغيره من البشر، كما أنه إذا لم يكن متكلما حتى خلق الخلق، ثم تكلم بعد ذلك، لزم منه أن الأشياء كانت من غير أمر منه، ولا من قول منه، ولم يكن قد قال لها كوني، وهذا رد وإنكار لما جاء به القرآَن وعليه جمهور أهل الإسلام.[40]

وبالتالي يكون القول بأن عيسى **عين الكلمة** باطلا؛ لأن كلام الله ليس بمخلوق والكلمة التي قالها الله عز وجل في حق عيسى من كلام الله هي الأخرى غير مخلوقة، وإذا امتنع أن تكون الكلمة مخلوقة امتنع أن يكون عيسى هو عين الكلمة؛ لأنه مخلوق كغيره من المخلوقات.

ويرد الرازي **سبب التوجه إلى التأويل** بدل حمل قوله تعالى: ﴿كلمة منه﴾ على أنها هي ذات عيسى عليه السلام، إلى أن **كلمة الله هي كلامه عز وجل،** وهو عند الأشاعرة **"صفة قديمة قائمة بذاته،** وعلى قول المعتزلة **أصوات يخلقها الله تعالى في جسم مخصوص** دالة بالوضع على معان مخصوصة، والعلم الضروري حاصل بأن **الصفة القديمة أو الأصوات التي هي أعراض** غير باقية يستحيل أن يقال: أنها هي ذات عيسى عليه السلام، ولما كان ذلك باطلا في بداهة العقول لم يبق إلا التأويل".[41]

وأما قوله تعالى: ﴿من﴾ في قوله ﴿بكلمة منه﴾ فليست للتبعيض وإنما لابتداء الغاية، فلو كانت للتبعيض للزم من ذلك أن الله تعالى متجزئا متبعضا، يحتمل الاجتماع والافتراق وبالتالي يكون محدثا، فكانت ﴿من﴾ هنا لابتداء الغاية بسبب أنه لما انتفى الأب في حدوث عيسى، صار تأثير كلمة الله في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر، فكان **مبدأ حدوثه وظهوره كونه كلمة** ﴿**الله**﴾ تعالى.[42]

---

[40] انظر: الأشعري، **الإبانة عن أصول الديانة**، المحقق: فوقية حسين محمود، ط.1 (دار الأنصار، القاهرة، 1397) ص: ص: 69-70.

[41] الرازي، **مفاتيح الغيب**، الجزء: 8، الصفحة: 39.

[42] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 8، الصفحة: 54.

وبناء على ذلك يتحصل أن ابتداء تكون عيسى عليه السلام كان من مريم وليس من ذات الله تعالى، كما يزعم النصارى ومن قال بالحلول، ومريم هي الأخرى مخلوقة من أبويها، وأبواها هم كذلك مخلوقان من أبويهما. وهكذا؛ تمتد هذه السلسلة إلى أب البشرية آدم عليه السلام.

المطلب الثاني: سبب تسمية عيسى بالكلمة

يمكن اعتبار فخر الدين الرازي من أبرز من اهتم في السياق الكلامي الإسلامي بالوقوف على سبب تسمية عيسى بالكلمة، حيث انطلق أولا من تقرير تعدد الوجوه والتأويلات في سبب هذه التسمية، وأولها: كونه **تكلم في طفولته وآتاه الله الكتاب** في تلك الفترة، فكان قد بلغ مبلغا عظيما في **كونه متكلما**، فسمي تبعا لذلك كلمة الله، وهو من باب قول: فلان جودٌ إذا كان مشهودا له بالكمال في الجود. ثانيها: أنه سمي بالكلمة لكونه **يشترك مع ما تفيده من المعاني والحقائق**؛ لأنه كان **مرشدا إلى الحقائق والأسرار الإلهية**.[43] وثالثها: كونه قد **وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله**، فلما خُلق، قيل مجازا: هذا هو تلك الكلمة التي بشر بها من سبق من الأنبياء، وذلك من قبيل أن يخبر المرء عن حدوث أمر، حتى إن وقع، قال: قد جاء كلامي، أي ما كنت أتكلم له. ورابعها: أنه **لما جاز أن يسمى الإنسان بفضل الله وعبد الله، جاز أن يسمى عيسى عليه السلام بكلمة الله.** وخامسها: **لبيانه عن الله وإزالته لما سبقه من الشبهات والتحريفات**، كما جرت العادة على وصف السلطان العادل بأنه ظل الله في أرضه، لكونه سببا في ظهور وإشاعة العدل بين الناس.[44] وسادسها: **لكونه حدث في فترة زمنية صغيرة كما تحدث الكلمة**،[45] وقد أضاف ابن تيمية سبب آخر فقال: **"**وإنما خُص المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر؛ لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات، يخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، وخلقوا من ماء الأبوين: الأب والأم، والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل، بل لما نفخ روح القدس في أمه حبلت به، وقال الله: كن فكان**"**.[46]

فيظهر لنا من خلال ما تقدم في بيان أسباب تسمية عيسى بكلمة الله أنها كلها أسباب تصح أن تكون وراء تسميته بها عليه السلام؛ لأنها معاني تصح فيه من **جهة الوقوع؛** حيث إنه تكلم صغيرا وآتاه الله الكتاب صغيرا وكان مرشدا إلى الحقائق والأسرار الإلهية ووردت به البشارة في كتب من سبقه من الأنبياء، وكانت ولادته في مدة قصيرة، و**من جهة الغاية،** فقد بعث بقصد إزالة الشبهات والتحريفات عن الله تعالى وإرجاع الناس إلى الدين القويم. كما تصح فيه من **جهة اللغة؛** إذ جاز أن يسمى عيسى بكلمة الله كما جاز أن

---

[43] انظر: **مفاتيح الغيب**، الجزء: 8، الصفحة: 39.

[44] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 8، الصفحة: 52.

[45] انظر: **المصدر نفسه**، الجزء: 1، الصفحة: 23.

[46] ابن تيمية، أحمد **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الجزء: 3، الصفحة: 316. وله مزيد بيان في كتاب **الفتاوى الكبرى**، نصه: "فإن المسيح سمي كلمة الله لأن الله خلقه بكلمته: ﴿كن فيكون﴾، كما يسمى متعلق الصفات بأسمائها فيسمى المقدور قدرة، والمعلوم علما، وما يرحم به رحمة، والمأمور به أمرا". ابن تيمية، **الفتاوى الكبرى لابن تيمية**، ط.1 (دار الكتب العلمية، لبنان، 1987) الجزء: 6، الصفحة: 592.

يسمى غيره بعبد الله، وأما ما ذكره ابن تيمية في سبب تسميته فهو ما عليه جمهور المتكلمين في معنى كون عيسى كلمة الله.

الخاتمة

ومن النتائج التي يخلص إليها هذا البحث:

_ إن اكتفاء التفاسير الأولى بعدم مناقشة أدلة النصارى وإبطالها بالأدلة العقلية، كان محكوما بالسياق التاريخي؛ إذ لم تكن النصرانية تشكل خطرا على عقائد المسلمين، لكن مع دخول مناطق كثيرة من العالم تحت حكم المسلمين، وحصول تبادل المعارف بين المسلمين وغيرهم، كان آنذاك لزاما على العلماء أحيانا أن يقنعوا هؤلاء النصارى ببطلان ما هم عليه باستعمال الأدلة العقلية، وأن يدافعوا أحيانا أخرى عن العقيدة الإسلامية أمام دعاوى النصارى، وهو الأمر الذي أدى إلى تطوير النقاش في هذه المسألة وغيرها من المسائل.

_ في مرحلة من المراحل، خاصة مع الجهمية انتقلت المقالات النصرانية في هذه المسألة إلى ساحة النقاش العقدي الإسلامي؛ حيث أصبح النقاش يحضر فيه التنبيه إلى أن أصل مقالات الجهمية هي العقيدة النصرانية، مما يدل على أن معرفة المسلمين بعقيدة النصارى كان حاصلا.

_ إن النقاش بخصوص هذه المسألة دائما ما كان من مفردات الحديث عن مسألة خلق القرآن في سياق الكلام الإسلامي؛ حيث دائما ما كان يأتي عرضيا في سياق تبني كل من الجهمية والمعتزلة لمقالة خلق القرآن، في مقابل قول الأشاعرة وأهل الحديث بكونه ليس مخلوقا.

_ إن الإجماع حاصل بين النصارى والمسلمين على أن عيسى عليه السلام كلمة الله، إلا أنهم اختلفوا في معانيها، فقالت النصارى هو من ذات الله، فآل قولهم هذا إلى القول بحلول الذات الإلهية في جسم المسيح، ورتبوا على ذلك مقالات عديدة، فقال بعضهم إنه إله، وقال بعضهم إنه ابن الإله، وقال بعضهم إن أقنوم العلم حلَّ فيه، إلا أن المسلمين وقفوا عند كونه كلمة الله وعبده ورسوله ولم يتجاوزوا ذلك.

_ هناك إجماع بين الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث على أن المراد فيما جاء في القرآن الكريم من أن المسيح عليه السلام كلمة الله، هو أنه بكلمة الله حدث وخلق، وأن كلام الله صفة قائمة به وحده، وليس حادثا، كما اتفقوا على أن القول بأن معنى الكلمة هو أن عيسى هو عين الكلمة باطل وفاسد، بما دل عليه العقل والنقل.

_ لم يقف المتكلمون عند حدود ما تقرره الآيات القرآنية، بل تجاوزوا ذلك إلى الاعتماد على الأدلة العقلية في الرد على مزاعم النصارى وتأويلات الجهمية والمعتزلة؛ وهذا كان نتيجة توسعهم في ذكر عقائد النصارى ومناقشتها.

_ إن الاطلاع على عقائد النصارى كان حاصلا منذ النقاشات الأولى في العهد النبوي، إلا أنه مع اهتمام المتكلمين به عرف تطورا على مستوى النقد والرد.

_ إن إيراد الاعتراضات واللوازم بغرض إبطال مقالات المخالفين عرف تعددا وتطورا عبر تاريخ الفكر الكلامي؛ بحيث استجدت أدلة جديدة في المسألة مع كل متكلم. كما أن النظر في تطور النقاش في هذه المسألة عبر التاريخ؛ ليظهر ورود إلزامات جديدة على مقالات النصارى والجهمية والمعتزلة مع كل متكلم.

_ إن التواصل المعرفي بين كل من النصارى والمسلمين كان حاصلا على مستوى مناقشة المسائل العقدية، وهذا التواصل أدى إلى تطور المقالات والإلزامات من الطرفين مع مرور الزمن، وهذا يظهر جليا في زمن ابن تيمية. كما يعد كل من الماتريدي والباقلاني وابن حزم من أول من خاض في نقد مذاهب النصارى، بناء على الأدلة العقلية.

لائحة المصادر والمراجع:

1. ابن تيمية، تقي الدين. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق: علي بن حسن، وعبد العزيز بن إبراهيم، وحمدان بن محمد، ط.2 (دار العاصمة، الرياض، 1999).
2. ابن تيمية، تقي الدين. **الفتاوى الكبرى لابن تيمية**، ط.1 (دار الكتب العلمية، لبنان، 1987).
3. ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، ط.1 (شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، 1982).
4. ابن حنبل، أحمد. **الرد على الجهمية والزنادقة**، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، ط. 1 (دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، د.ت).
5. الأشعري، أبو الحسن. **الإبانة عن أصول الديانة**، تحقيق: فوقية حسين محمود، ط.1 (دار الأنصار، القاهرة، 1397).
6. الباقلاني، أبو بكر. **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط.1 (مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1987).
7. الرازي، فخر الدين. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، ط.1 (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981).
8. الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق: عادل أحمد إبراهيم، ط.1 (مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 2013).
9. الطبري، ابن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط.1 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000).
10. الماتريدي، أبو منصور. **التوحيد**، تحقيق: فتح الله خليف (دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، د.ت).
11. الدارمي. **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد**، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، ط.1 (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1998).

مراجع باللغة الأجنبية:

1. Amar. Djaballah, ''**jesus in islam**''. The Southern Baptist Theological, Volume: SBJT 08:1 pp. 14-30, (Spring 2004).